الإشارات البلاغية في القرآن الكريم

علم البيان أنموذجاً

دكتور/نصرالدين إبراهيم أحمد حسين

أستاذ النقد والبلاغة المشارك

بقسم اللغة العربيّة وآدابها

كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة

الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا

ونائب العميد للشؤون العلمية (سابقاً)

تمهيد:

هناك أشارات بلاغيّة رائعة تكثر في القرآن الكريم وسوره، فإسلوب القرآن فاق طوق البشر يوم تنزّل عليهم، حيث حرّك عواطفهم، ووجدانهم, وأفكارهم، وأخذوا يشعرون أن شيئاً جديداً حلّ في قلوبهم، وسيطر على أفئدتهم، وعقولهم، فلم يستطيعوا له حولا. فوقفوا أمامه حيرى، لا يستطيعون شيئاً. والقرآن كله بلاغة وبيان، ولكن حسبنا أن نقف عند إشارات فقط، نستلهم منها هذا الذوق الرفيع، وذلك البيان المدهش، وتلك البلاغة التي لا بلاغة من قبلها، ولا من بعدها. وكان اختيارنا على فن البيان بوصفه نماذج لبحثنا هذا، لما فيه من إشارات مذهلة، ودلالات رائعة تذهب بلب المرء وقلبه لبهائها وجمالها وروعتها. وقد اخترنا من هذا الفن نماذجاً معبّرة عن سحر هذا الأسلوب الرباني، وركّزنا على: التشبيهات، والمجازات، والاستعارات، والكنايات، لعلنا بذلك نكون قد أوفينا بالقليل، ويبقى هناك الكثير الكثير، ونسأل الله –سبحانه وتعالى– التوفيق والسداد.

أولاً:التشبيهات.

وضع البلاغيون تعريفات كثيرة للتشبيه. قال المبرد: "واعلم أنّ للتشبيه حدّاً. فالأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه، وإنّما ينظر إلى التشبيه خاصة من حيث

وقع"[1]. وذكر قدامة بن جعفر: "إنّ الشيئ لا يشبه بنفسه لا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما تغير البتّة اتحدا فصار الاثنان واحداً، فبقي أنْ يكون التشبيه إنّما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ تعمّهما وتوصفان بها وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها. وإذا كان الأمر كذلك، فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد " [2]. وذهب الرُّماني إلى أن "التشبيه هو العقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حس أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس"[3]. ويرى أبو هلال العسكري أنّ: "التشبيه الوصف بأنَّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه"[4]. وذكر ابن رشيق القيرواني أن "التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إياه" [5]. وقال السكاكي: "إنّ التشبيه مستدع طرفين مشبهاً ومشبهاً به، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر"[6].

ولخص بدوي طبانة تعريف التشبيه قائلاً: "هو الإخبار بالشبه، وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر، ولا يستوعب جميع الصفات، أو هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه. أو هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من

---

[1]-**الكامل**، ابو العباس المبرد، تحقيق زكي مبارك، (القاهرة: عام 1355هـ – 1936م.)، ج2،ص19.

[2]-**نقد الشعر**، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، (القاهرة: الطبعة الأولى، عام 1963م .)،ص122.

[3]-**النكت في إعجاز القرآن (ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن)**، ابو الحسن علي بن عيسى الرُّماني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، (مصر: الطبعة الخامسة، دار المعارف، عام 2008م.)، ص80.

[4]-**كتاب الصناعتين**، أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: 1371هـ – 1952م.)، ص239.

[5]-**العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: الطبعة الثانية، عام 1374هـ – 1955م.)، ج1، ص286.

[6]-**مفتاح العلوم**، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، (القاهرة: عام 1356هـ – 1937م.)، ص 157.

جهة واحد أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كليّة إياه"[7]. واختصر أحمد مطلوب التعريفات الكثيرة في قوله: " إنّ التشبيه ربط شيئين أو أكثر في صفة من الصفات أو أكثر"[8] .

وسوف نختار هنا بعض النماذج لهذا الفن الرائع، والتي توضح ما تمييز به القرآن الكريم من أسلوب رفيع مبدع، فاق طوق البشر، نبرز من خلالها الإشارات البلاغيّة التي تساعد على فهم النص القرآني، وتؤدي إلى فهم الخطاب القرآني في يسرٍ.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [9].

وهنا يرسم القرآن الكريم لوحة جميلة رائعة المنظر مجسّمة عن حال هذه الدنيا ونعيمها وحسنها وجمالها وبهجتها حتى يظن الإنسان أنها أبدية سرمدية، ولكن ما تلبس أن تزول حطاما كأن لم تكن شيئاً من قبل، مستخدماً في ذلك التشبيه التمثيلي، حيث المشبه: حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال. والمشبه به: حال النبات في جفافه وتحوله إلى حطام، بعد ما التفّ، وأخضرّ، وتكاثف، وزيّن الأرض بخضرته. أمّا وجه الشبه: صورة منتزعة من متعدد، صورة شيء مبهج يبعث الأمل في النفوس في أول أمره، ثمّ لا يلبث أن يظهر في حال تدعو إلى اليأس والقنوط.

---

[7]-**معجم البلاغة العربية**، بدوي طبانة، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، عام 1402هـ – 1982م.)، ج1، ص365.

[8]-**معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها**،أحمد مطلوب، (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، عام 2000م.)، ص 325.

[9] -سور يونس، آية 24.

وذكر الزمخشري أن " هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض

نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفّ وتكاثف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه "[10].

وذكر الرماني أن " هذا بيان قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طالت مدته، وصغير وإن كبر قدره" [11].

وهنا تجد إشارات بلاغية رائعة تكشف عن روعة هذه اللوحة الفريدة، فالصورة منتزعة من متعدد، تكمن وراء هذه الكلمات (زخرفها، ازينّت،، ظنّ، حصيدا)، حيث توحي هذه الكلمات بمعاني عميقة تغوص في باطن النفس الإنسانية، فتستنهض هممها، وتدفعها إلى التفكر، والتأمل في خلق الله تعالى، وما الحياة الدنيا إلا دقائق وثواني، وليس على المرء إلا أن يسارع بالعمل الصالح، قبل فوات الآوان.

ونتناول تشبيهاً آخر من التشبيهات التي وردت في القرآن وتميّزت بطابع بلاغي خاص، وأسلوب رائع جميل، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [12].

---

[10]-**الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، عام 1997م).

[11]- **النكت في إعجاز القرآن (ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن)**، ابو الحسن علي بن عيسى الرُّماني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، (مصر: الطبعة الخامسة، دار المعارف، عام 2008م.)، ص83.

[12]–سورة العنكبوت، آية 41.

تتحدث الآية عن أهل مكة خاصة، وعامة عن هؤلاء الناس الذين اتخذوا لهم سنداً واهياً لا أساس له، ولا حول له ولا قوة، حيث لا يقيهم عذاب الله في الدنيا والآخرة، فهم قوم مكدودون يجهدون أنفسهم في غير طائل، ويعيشون حياتهم بلا حياة، ويضيعون مستقبلهم بأيدهم. فالتشبيه ناطق بذلك كله، مستنبط من تلك الإشارات البلاغية. فالعنكبوت يتعب نفسه في البناء، ويبذل جهده في التنظيم، ثم يبني أوهن البيوت وأضعفها، وبيت العنكبوت خيوط ضعيفة لا تدفع عنها حرّاً ولا برداً، ولا تحفظها من يدّ تمتد إليها، ولا ريح تهبّ عليها، وولاية الأوثان كذلك. ويذهب الروماني إلى أن هذا " تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في ضعف المعتمد، ووهي المستند، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشعور بما فيه من التوهين"[13].

والإشارات البلاغيّة تشير إلى أن هناك شيء خفي في هذا التشبيه، وهو أن العنكبوت لا يلجأ إلا إلى الأماكن القذرة المهملة التي لا تأخذ حظّها من التنسيق والجمال، وهو من هذه الناحية يلقى ضوءا بطريق إيحائي جذّاب على نفوس هؤلاء الوثنيين المتسخة بأقذار التخلّف، المنغمسة في تفكير ضال، وفي ذلك من التحقير ما فيه [14].

ونضرب مثالا آخر للتشبيهات في القرآن الكريم، ونستمع لبعض العلماء والأدباء في محاورتهم لهذه التشبيهات الرائعة. ومن ذلك قول اللع سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ،طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ،فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾**[15].

---

[13]–المصدر السابق، ص78.

[14]– انظر: **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، فتحي أحمد عامر، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة، عام 1395هـ – 1975م.)، ص 238.

[15]–سورة الصافات، آية 63- 65.

يذهب الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي إلى أن القرآن لا يشبه محسوساً بمعقول،ويؤول قوله تعالى هذا بقوله:"فالذي سمح بأن يكون المشبه به خاليا،هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس صورة رؤوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة،وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن،ويقوى فعلها في النفس،حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد،فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضوع التصوير والإيضاح.

ولا نستطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس،ومما جرى على نسق هذه الآية قوله تعالى﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ الْآمِنِينَ**﴾ [16].

ففي الخيال صورة قوية للجان،تمثله شديد الحركة،ولا يكاد يهدأ ويستقر"[17].وتحقيق هذه المسألة أن بعض العلماء أنكر وقوع هذا النوع من التشبيه في القرآن،محتجين بأنه جرى على الأصل الأبلغ في أن الحسي أصل للعقلي وقال آخرون بوقوعه محتجين بقوله تعالى:﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ،طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ [18].

وقد سأل إبراهيم الكاتب العرياني أبا عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى الوعيد في ذلك،وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله،وهذا لم يعرف،فقال:إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم،أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط،ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به

---

[16]-سورة القصص،آية 31.

[17]-**من بلاغة القرآن**،الدكتور أحمد بدوي، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، الفجالة، د.ت.)،ص 194.

[18]-سورة الصافات،آية ،64-65.

فاستحسن الفضل ذلك،واستحسنه السائل[19].

ويقول الجاحظ، وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة،ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجها وكراهتها،وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير وبالإحاطة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين،وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم.

ثم يقول وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين:أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن[20].

ورد على من يقولون:بأنه كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه،ولا وُصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق،بقوله: "وإن كنا نحن لم نر شياطين صُور رؤوسها لنا،صادق بيده،ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين:

الوجه الأول: أن يقولوا:لهو أقبح من الشيطان!

والوجه الأخر: أن يسمى الجميل شيطان على جهة التطيّر به،كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء،والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطيّر به.وفي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح،والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طباعهم غاية التثبت ... فما القول في ذلك إلا كالقول في الزبانية وخزنة

---

[19] –**نزهة الألباء**، ابن الأنباري، (القاهرة: طبعة المدني، د.ت.)،ص143.

[20] - **الحيوان**، للجاحظ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، (بيروت: الناشر دار الكتاب العربي،بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، عام 1969م.)، ج4، ص 13.

جهنم وصور الملائكة الذين يتصورن في أقبح الصور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار،وكذلك في صورة منكر ونكير،ويكون للمؤمن على مثال،وللكافر على مثال[21].

والقول في هذه المسألة ما ذهب إليه الأستاذ علي الجندي من أن في الآية ثلاثة أقوال:

1-أن الشياطين هم متمردة الجن القباح الصور،والمناظر كما وقر في أذهان الناس.

2-أن الشياطين هم الحيّات على جاري تسمية العرب لها،فهم يعتقدون في هذا الاعتقاد الذي ساد بينهم.

3-أن الشياطين شجر مخصوص منكر الصورة.

وأرجح هذه الأقوال هو الأول،لأن العرب كانت تتمثل الشياطين كما تتمثل البوم على غاية الشناعة،كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال ولهذا زعموا أنهم بنات الله،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.ثم يستطرد الأستاذ على الجندي فيذكر ما ذكره الثعالبي من أن الصاحب بن عباد كان يستملح قول أبي علي البصير في أبي هفان ويستظرفه وكثيرا ما كان ينشده ويردده:

لي صديق في خلقة الشيطان وعقول النساء والصبيان

من تظنونه فقالوا جميعا ليس هذا إلا أبا هفان

انظر إلى ما يتركه هذا التشبيه من أثر يمثل أمامك الخوف الأبدي من تردد يعقب الندامة والهوان،ويمثل أمامك هؤلاء الذين يستبدلون خيرا بشر وسعادة

[21]- المصدر السابق ،6/ 65.

بشقاء،يمثلون أمامك ذاهلين عن أنفسهم،أو ذاهلة نفوسهم عنهم لا يدركون ما حولهم،وكأنه ليسوا من الحياة[22].

إذن لم يكن التشبيه في القرآن هدفاً يقصد إليه دون أن يستتبع المعنى، ويكون جزءاً أساسياً تتوقف عليه دلالة الآية، فهو نمط من أنماط التصوير القرآني الذي أعجز بلغاء العرب، وظل شامخاً في مجال القول، ومعجزة باهرة تتردد عبر العصور، فلم يتناولها البلى أو التفكك، فالتشبيه إذن ليس محسناً خارجاً عن إطار المضمون، يتجمّل به النظم، وترشق به العبارة، وإنما هو جوهر داخل في المضمون، ليتضح أثره النفسي، والأساس النفسي الذي يقوم عليه التشبيه، وغيره من الأساليب البيانيّة من حيث تأليفها وإدراكها وتقديرها، هو في الواقع عملية أساسية في التفكير، تلك هي ما بين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات[23] .

ونضرب مثالاً آخر للتشبيه في القرآن الكريم، وهو قول الله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ،أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور**﴾ [24].

نجد أننا– بدلا من أن نكون سامعين لألفاظ – نكون مشاهدين،تتعقب أنظارنا رجلا مجهدا،أضناه المسير،نفد ماؤه، وذوى عوده، مما أصابه من العطش الشديد أظلمت الدنيا في عينيه، ولاحت له كآبة الموت،تجمعت كل متع الحياة وملاذها في حفنة ماء يبل به ريقه، ويروي عروقه،بدأ له السراب،فبدت له الحياة فيه،ففزع

---

[22]- **فن التشبيه**، الأستاذ علي الجندي،ج 2، ص103 – 104.

[23]–**دراسات في علم النفس الأدبي**، حامد عبد القادر، (القاهرة: الطبعة الأولى، د. ت.)، ص41.

[24]- سورة النور،آية 39-40.

إليه،تسوقه رهبة الموت،وتحدوه الرغبة في الحياة التي لاحت بشائرها له،فبذل ما بقي من قواه المنهكة في الوصول إلى مكان الماء الموهوم،بكل ما له من آمال- إن بقي له من أمل في غير الظفر بحفنة من ماء – حتى إذا بلغ موضع الماء الموهوم،لم يجد فيه مما لاح له شيئا،فزايله الأمل وأحس بهزيمة الحياة أمام الموت.وبينما هو يُودّع آخر أمل له في الحياة ،إذا بأقوى عدوّ له ينتصب بكامل قواه أمامه،فما أشدّ ما يصيبه من ذعر،ويداخله من اضطراب. وما أعظم خديعة السراب له،وأبلغ ما عاد به عليه من ضرر. فما أيسر تحوّل المَمَثّل إلى مثل هذا المشهد الصارخ المليء بالحيوية والحركة،المشبوب بمشاعر الأمل واليأس، والطمع والهلع.وما أنفذه إلى النفوس، وأبلغ تأثيره فيها.

والسراب معهود، وانخداع الناس به مألوف. غير أن خديعة السراب هنا بدت أفظع مما نعهد. فالسراب بقيعة، وطالبه قد بلغ به العطش أقصاه. والبقيعة وإن فسّرها اللغويون بالقاع[25] وفسرها بعضهم بجمع القاع على شاكلة جار وجيرة[26] وقيدها بعضهم بالأرض الخالية من النبات[27] فإنها- في المثل- كما يبدو لي رقعة محددة من الأرض،ليكون السراب فيها أكثر تضليلا،فالسراب_ إذا ملأ الأفق أمام الناظر – لا تخفى حقيقة كونه سرابا ،وتخفى حقيقته هذه كلما صغرت الرقعة التي يحتلها.ومعلوم أن السراب ملتصق بالأرض ،فتفسير القيعة بالأرض مطلقا، يفقد لفظ القيعة وظيفته في التعبير.وما دام القرآن الكريم قد نصّ على لفظ القيعة،فأكبر الظن أن قد جيء به ليسهم في التصوير،ويكسبه دقّة أكثر.فإذا صحّ هذا،فإن السراب هنا أكثر خديعة.ولو خدع به من لم يكن بحاجة إلى الماء ،لما عادت عليه خديعته

---

[25]—**مجاز القرآن**،أبو عبيد (معمر بن المثنى)،تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين،66/2 الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة .

[26]—**مختار الصحاح**،الرازي،مادة (قوع)،الطبعة الثالثة ، المطبعة الأميرية ، القاهرة.

[27]—**المصباح المنير**،الفيومي،مادة(قوع)،الطبعة الخامسة، المطبعة الأميرية ، القاهرة.

بشيء من الضرر،ولكن الذي خدع به في أشدّ الحاجة إلى الماء، فكانت الخديعة سهما أصاب منه مقتلا.وتنتهي الصورة بالموقف المرعب المفاجىء،موقف انتصاب عدوّ المخدوع أمامه، في مثل ذلك الظرف العصيب،ويترك القرآن الكريم للقارىء والسامع أن يتخيل صورة الغريم يقاضي غريمه،وما يعتلج في صدر المخدوع بالسراب.فما أشبه صورة الظمآن المخدوع بالسراب،الذي وجد خصمه في موضع السراب، ما أشبه صورة هذا الذي لم يتبدد أمله في الظفر بماء الحياة – وهو على ما هو عليه من ظمأ فحسب – وإنما وجد نفسه أمام من لا يرحمه،ولا يستطيع دفعه ومقاومته، بالكافر الذي ظنّ أن أعماله ستعود عليه بالخير الوفير،وإذا بها لا تعود عليه بشيء مما أمّله فيها،في وقت أحوج ما يكون فيه إلى ثمارها. ولم يحرم من ثمارها فحسب،وإنما اقتيد إلى جهنم،وألقي فيها مذموما مدحورا.

وينتقل بنا المثل الثاني من تلك الفلاة الجرداء، التي لا ماء فيها ولا نبات، إلى بحر لُجِّيٍّ،تلاطمت أمواجه،وتطاولت في ظلام من السحاب المتراكم بعضه فوق بعض،لا نرى فيه غير الظلام الدامس،وقد أحاط بنا من كل جانب،لم يعد الواحد منا قادرا على أن يتبيّن راحة يده، لا ندري أين نتجه وماذا نصنع وقد وضعنا القدر بين غضب الماء،وغضب السماء.لا قدرة لنا على البقاء،ولا نتبيّن سبيلا إلى النجاة، والهرب مما نحن فيه. فما من بصيص نور يتبيّن به بعضنا بعضا،فضلا عن أن نتبيّن به معالم الطريق،إن بقي لنا في مثل هذا الموقف طريق،فهل من حيرة واضطراب وهلع أكثر مما يتملكنا من اضطراب ، وهلع وحيرة؟.ما أكثر ما شهدنا الظلام الدامس،ولكنه في هذه المرّة غيره في سواها لقد تعانق هذه المرّة مع الخطر المحدق،وكان خير معين له على اغتيالنا فكلما حاولنا الفرار من موضع الخطر،ردّنا – بعنف – إليه وثبّتنا فيه،ولو خيّم علينا مثل هذا الظلام ونحن في بيوتنا،أو أي مكان آخر – نستطيع فيه أن نخلد إلى السكينة،حتى تمزق أشعة النور

حجبه– لما كان له مثل هذا التأثير في نفوسنا،ولما بلغت بنا الحيرة ما بلغته في المثل،فما أروع تمثيل الكافر – وهو يتخبط في دياجير الكفر القاتمة،لا يكاد يتبّن للهداية والإرشاد سبيلا،بعد أن صدّ عن الحق ، الذي ما بعده إلا الضلال _ بمن يتخبط في ظلمات هذا البحر اللّجّيِّ[28].

وهناك لوحة آخر غاية في الإبداع والجمال يرسمها لنا القرآن الكريم في تصوير فريد منقطع النظير، وذلك في قوله تعالى:﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [29].

أراد أن يوضح مفهوم الحياة، وأنها ساعة من نهار، ليتدبر الناس شئون أنفسهم لحياة طويلة أبدية خير من هذه الحياة، فكان التشبيه هو سرّ هذه الدلالة المؤثرة التي تبلغ أعمق الأعماق، حياة تعرض في شريط طويل كما يراه الكفار، فهي لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينهم، وتكاثر في الأموال، يستمسكون بها لذلك كله، لأن حبه يمتزج بهم، والتشبيه يوضح لهم أن ذلك قصير أقصر من خيال أبهامهم، أو يوضح لهم أن ذلك كمثل غيث ينبت النبات، ويسقي الزرع، وبعد مدّة زمنيّة قد تكون شهرا، وقد تكون شهرين، وقد تكون ثلاثة أشهر يبلغ النبات مدى قوته وزهوه، واخضراره، وما هي إلا فترة بسيطة حتى يصفر مؤذناً بالانتهاء ومستعداً للحصاد الأكيد. وهذه الفاء المتمكنة في موقعها من الآية تفيد ترتيب التحول إلى الصفرة من الخضرة المشبوبة بلا مهلة، فكأن النبات بعد أن وصل إلى نهاية الشوط في النمو

---

[28]-أنظر: **الأمثال في القرآن الكريم**، الدكتور محمد جابر الفياض،ص401-403، الطبعة الثانية،عام 1415هـ – 1995م،نشر وتوزيع الدار العالميّة للكتاب الإسلامي، الرياض.

[29]-سورة الحديد، آية 20.

انحدر مباشرة إلى الاصفرار. فالقرآن يتخذ من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صور تشبيهاته من نباتها وحيوانها وجمادها، فمما اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيث، والحبة تنبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه، ومما اتخذ مشبهاً به من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة، والعنكبوت، والحمار، والكلب والفراش، والجراد، والجمل، والأنعام، وما اتخذ مشبها به من جمادها، العهن المنفوش، والصيب، والحجارة والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب، ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعني بنفاسة المشبه به، وإنما يعني العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس وشدّة وضحها وتأثيرها [30].

وفي مثال آخر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**﴾ [31] .

نجد العرب مثلاً قد اشتهر بعضهم بصفات نبيلة عالية المنزلة، حتى أصبح يضرب ببعضهم المثل في صفات اجتمعت لهم، وتميّزوا بها دون الآخرين، فيضرب المثل بإقدام عمرو بن معديكرب، الجود بحاتم الطائي، والحلم بالأحنف بن قيس، والذكاء بالياس، وأصبح كل واحد من هؤلاء، مثلاً عالياً في الصفة التي اشتهر بها. فالأسلوب العربي يقضي على أن يضرب بهؤلاء المثل الأعلى سواء أوجد بعده من هو أعظم منه، أو أقوى، أو لم يوجد. والقرآن الكريم تنزل بلسان عربي مبين، وقد سلك هذا السنن، فشبه نور الله سبحانه وتعالى، وهو بلا شك أقوى الأنوار، بنور المصباح في مشكاة، لأن العرب جروا على عادة أن يجعلوا نور المصباح أكبر الأنوار وأعظم الأضواء. كذلك اطردت العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى

---

[30]–**من بلاغة القرآن**، أحمد أحمد بدوي، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، عام 1950م.)،ص 197–198.

[31]–سورة النور، آية 35.

بالأعلى، فإذا جاء الأمر على خلاف ذلك فهو التشبيه المعكوس أو المقلوب طلباً للمبالغة بادعاء أن وجه الشبه في المشبّه أقوى منه في المشبّه به.[32] هذا وقد سمّاه ابن الأثير؛ الطرد والعكس، والغرض منه المبالغة وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ، وقد شاع ذلك في كلام العرب واتسع حتى صار كأنه الأصل في التشبيه. والواقع أن هذا الضرب من التشبيه حسن الموقع، لطيف المأخذ، وهو مظهر من مظاهر الافتتان، والإبداع في التعبير. والشرط في استعمال التشبيه المقلوب ألاّ يرد إلا فيما جرى عليه العُرف والإلف لدى العرب، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس[33].

ثانياً:المجازات.

استخدم القرآن الكريم أسلوب المجاز في عُدّة سور، وآيات، وذلك لما تميّز به أسلوب المجاز من اتساع في المعنى، وفصاحة في التعبير. ولأن هذا الأسلوب يستطيع أن يشخّص، ويجسّد الفكرة المراد توضيحها وشرحها؛ وذلك من خلال الإشارات البلاغيّة التي تكشف عن المعاني الخفيّة وراء التركيب القرآني في الآيات.

فمثلاً إذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾ [34].

ذكر الزمخشري أنه كلما دعاهم "ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة، واستغشوا ثيابهم، وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم، أو تغشيهم لئلا

---

[32]-**البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، الجزء الثاني، علم البيان**، بكري شيخ أمين، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، عام 2003م.)، ص46.

[33]-**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين بن الأثير، (القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1358هـ – 1939م.)، ج1، ص421.

[34]-سورة نوح، آية 7.

يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله. وقيل لئلا يعرفهم... واستكبروا، وأخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استكبارهم وعتوهم"[35].

نجد أن قوم سيدنا نوح عليه السلام معاندين، لا يستمعون القول، ولا يريدون أن ينصتوا إلى دعوته، أو يجادلونه فيها. وإنما أراد لهم نبيهم الرحمة، والمغفرة من عند الله سبحانه وتعالى، ولكنهم يزدادوا استكبارا وعناداً، وعدم مبالاة بالموقف. وهنا تصوّر الآية موقفهم وجحودهم وعدم انصياقهم للوحي الرباني، فالمعلوم أن الإنسان يضع أصبعاً واحداً في أذنه إذا أراد ألاّ يستمع إلى قول من يكلمه. ولكن جاء التعبير القرآني بالجمع، وليس بالإفراد، حيث ذكر أصابع بدلاً من أصبع، ليدل على حرصهم لعدم استجابة دعوة نبيهم. والإنسان يضع جزءاً من الأصبع، وليس الأصبع كلّه، إذن لخرق وثقب الأذن. ولكن هذا التعبير القرآني جاء ليأكد الحالة التي هم عليها، حيث أطلق على كل الأصبع، وأراد جزءاً منه هو الذي وضع في الأذن. وهذا النوع يُسمى في البلاغة مجازاً مرسلاً علاقته الكليّة، حيث أطلق على الكل، وأراد الجزء. وفي الآية تشخيص واضح لحالة هؤلاء الكفّار الذين ظلموا أنفسهم بعدم اتّباعهم لدعوة نبيهم نوح عليه السلام.ونلحظ أن الإمام الزمخشري قد غفل عن بعض هذه النكات البلاغية التي أصلاً جاءت لتشخيص موقف هؤلاء الكفار، وتبيان ما يكمن في قلوبهم من ضلال وعناد واستكبار.

وهناك إشارات بلاغيّة أيضا من وراء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾ [36]. نلحظ أن الآيات أُخرجت في سياق بلاغي مبدع، حيث أُلبثت ثوب

---

[35]-**الكشاف**، الزمخشري، ج4، 619.

[36]-سورة النساء، آية 2.

المجاز المرسل. والنكتة البلاغيّة هنا أن اليتيم في اللغة هو الصغير الذي مات أبوه، وليس المقصود – في الآية – أن الله سبحانه وتعالى يأمر بإعطاء اليتامى الصغار أموال آبائهم. لأن هذا غير منطقي، لأن المنطق أن تُعطي هذه الأموال إلى الذين وصلوا سن الرشد، وكانوا يتامى، فهنا كلمة يتامى مجاز لأنها استعملت في الراشدين، لأن اليتمي يعطى ماله عندما يبلغ سن الرشد، حتى يضيع ماله، ويكون واعٍ لما يفعل. والدلالة البلاغية هنا أن هذا أعتبار ما كان، أي أن الراشدين كانوا يتامى، ثم بلغوا سن الرشد، فأصبحوا مستحقّين لأخذ أموالهم، والتصرف فيها بعقلانيّة، وحكمة. وذكر عبد الرحمن حسن أن: "في هذه الآية إطلاق لفظ (اليتامى) على من بلغوا رشدهم ممّن كانوا يتامى قبل ذلك، لأن من بلغ رشده من ذكر وأنثى لا يُسمى يتيماً، فهذا من إطلاق يغني عن عبارة طويلة يقال فيها: وآتوا الذين كانوا يتامى فبلغوا رشدهم أموالهم"[37] . اللّفظ مجازاً على الشيء بالنظر إلى ما كان عليه، وفائدة هذا الإطلاق الإيجاز من جهتين: الأولى أن لفظ اليتامى يُطلق على المذكر والمؤنث. والثانية أن إطلاق هذا اللفظ مجازاً وأسلوب الأمر هنا حقيقيّ، وهو أمر من الله سبحانه وتعالى، حتى لا يُظلم أحد، ويأخذ كل ذي حقٍّ حقه كاملا، لأن هذه هي عدالة السماء. وبالإضافة في كلمة (أموالهم)، تعني أن نسبة هذا الأموال لهم لا لغيرهم، فهي ملك شرعيّ لهؤلاء اليتامى، لا يجب التصرف فيها، أو استخدامها، وإنما هي حقّ وأمانة ترد لأصحابها. وقال الطبري: " أسلموا إليهم أموالهم؛ إذا بلغوا الحُلم، وآنستم منهم الرشد"[38] . كما جاءت الألف واللام، في كلمة (اليتامى)، لتعني كل من هو يتيم أو فقد والده، فهي جاءت للإطلاق.

---

[37]-**البلاغة العربية؛أسسها، وعلومها، وفنونها**، عبد الرحمن حسن حبنّك الميداني، (بيروت: دار القلم والدار الشاميّة، الطبعة الأولى، عام 1416هـ – 1996م.)، ج2، ص280.

[38]-**مختصر من تفسير الإمام الطبري**، أبو يحي محمد بن صمادح التُّجيبي، تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيتي، وراجعه، الدكتور جوده عبدالرحمن هلال، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام 1390هـ – 1970م.)، ص98.

ونلمس هناك تصويراً بلاغيّاً رائعاً في قصة نوح مع قومه، وتحذير الله سبحانه وتعالى له من هؤلاء القوم الكفرة الذين إذ تركوا أضلّوا العباد، ونشروا الفساد. وذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ [39].

ذكر الإمام الطبري أن هذا الدعاء كان من سيدنا نوح عليه السلام عندما أوحى إليه ربّه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فدعى نوح ربّه هذا الدعاء[40]. ونجد أن (فاجراً– كفّاراً)، أُخرج على سبيل المجاز، لأن المولود حين يولد لا يكون فاجراً، ولا كفاراً، ولكنه قد يكون كذلك بعد الطفولة، فأطلق على المولود لفظة الفاجر، وأُريد بها الرجل الفاجر، ودلالة ذلك في البلاغة، هو ما يُطلق عليه مجار مرسل، وعلاقته هنا اعتبار ما يكون. لأن الإنسان يُولد على الفطرة، كما جاء في معنى حديث الرسول (ص). ثم تأتي البيئة الخاصة، والعامة لتلعب دوراً فاعلاً في توجيهه. وقد يكون هذا التوجيه إيجابيّاً أو سلبيّاً. وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ** ﴾ [41].

وذكر الطبري أنه: "بغلام حليم، ذي حلم إذا هو كبر"[42]. وهذا أيضا اعتبار ما سيكون، لأن الطفل لا يُلد غلاماً، وتتبيّن مظاهر الحلم عندما يكبر، ولذا جاءت الأية تتكلّم عن أحداث المستقبل، وهذا هو الإعجاز، لأنه لا يعرف المستقبل وأحداثه إلا الله سبحانه وتعالى.

ونجد هذه الإشارات البلاغيّة كثيرة في الأسلوب القرآني، وهي التي تضفي لهذا الأسلوب الرائع المبدع إشراقات تميّزه عن أساليب البشر من حيث الدقّة والعمق وحسن الاختيار. وهذه الدلالات تنقل القارئ لكي يتفكر فيما وراء العبارة، يتفكّر في

---

[39]–سورة نوح، آية 27.

[40]–المصدر السابق ، ج2، ص 401.

[41]–سورة الصافات، آية 100–101.

[42] المصدر السابق، ج2، ص 158.

المعاني الثواني التي تضيفها هذه الإشارات البلاغيّة للأسلوب، فتمنحه الحياة والمرونة والجاذبيّة. انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**﴾ [43]. والمعروف لدينا، أن معنى النادي هو المكان الذي يجتمع فيه الناس لأمور تتعلق بهم. ولكن المقصود في الآية الكريمة، ليس النادي، أو المكان، بل مَنْ في هذا المكان من إخوانه، وأصدقائه، وعشيرته، ونصرائه. وهذه الآية استخدمت هذا اللون من المجاز المرسل، والمعنى من ذلك أن المراد الحال وليس المحل. ولذا جاءت العلاقة هنا على سبيل المحليّة، وجاء أسلوب الأمر هذا ليخرج عن معناه الحقيقي، إلى معنى آخر مجازي يدلّ على السخريّة والاستخفاف. وهذا كقوله تعالى:﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾ [44].

وقد يخرج المعنى ويدلّ على علاقة تختلف عمّا نحن بصدده. وذلك في قول الله عزّ وجلّ:﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [45]. والنعيم ليس محلاً ولكنه حالاً، والنعيم لا يحلّ فيه الإنسان، لأنه معنى من المعاني، وإنما يحلُّ في مكانه، فاستعمال النعيم في مكانه مجاز أُطلق فيه الحال، وأريد المحل، فعلاقته الحاليّة، والمقصود هنا جنة النعيم، وكذلك المقابلة في العبارة التي تليها، حيث المعنى المتبادر إلى الذهن، نار جهنم وبئس المصير. والآية قد جمعت أربعة فنون من علم البديع؛ المجاز المرسل، والسجع، والمقابلة، والتوازن. وجاءت كل هذه الفنون البديعية متسقة مع النص القرآني، دون زيادة أو نقصان. فاللفظ والمعنى يتكاملان في النص القرآني، وهذا التكامل هو الذي يؤدى إلى الخطاب القرآني الذي فاق طوق البشر.

---

[43]-سورة العلق، آية 17-18.

[44]-سورة يوسف، آية 82.

[45]-سورة الانفطار، آية 13-14.

ومثل هذا المثال أيضا جاء في قوله تعالى:﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [46]. والمقصود في جنّة الله، حيث أطلق على الحال، وأراد المحل، فعلاقة المجاز المرسل الحاليّة .

وقد تتخذ علاقة المجاز شكلاً آخر مثل قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ** ﴾ [47]. فالعين هي موضع النظر، وهي جزء من الإنسان، ولكنها هي الآلة التي يرى بها الإنسان الأشياء ويميّزها، إذن المقصود ليس هذه العين الجزء المجرد فقط، بل الإنسان بكامله. ومن هذا، نجد أن الإشارات البلاغيّة لعبت دوراً فاعلاً في الكشف عن المعنى المراد، وهذا المعنى يكمن وراء العبارة القرآنيّة، ويحتاج إلى تفكّر وتدبّر.

ثالثاً: الاستعارات.

والاستعارة مجاز لغوي عند أكثر البلاغيين، وإن كان عبد القاهر قد تردد فيها فجعلها مجازاً عقليّاً مرة، ومجازاً لغويّاً تارة أخرى، ففي (دلائل الإعجاز) يميل إلى أنّها مجاز عقلي أو هي من أبوابه، ويذكر في الكتاب نفسه أنّها مجاز في نفس الكلمة، أي مجاز لغوي، ويؤكد ذلك ما ذكره في كتابه الآخر (أسرار البلاغة). وقد أشار المتأخرون إلى هذا التردد كالرازي الذي رأى أنّها مجاز لغوي، والسكاكي الذي أنكر المجاز العقلي وسلكه في الاستعارة المكنيّة، أي أنّ المجاز لغوي كله[48] .

وهناك بعض الإشارات البلاغيّة التي وردت في آيات القرآن الكريم وهي تختص بالاستعارة، ومدى بعدها، وغورها في تعميّق الصور التي تحيط بالأسلوب القرآني، والكشف عن أفكاره، ومعانيه. ونضرب مثلاً لذلك قول الله سبحانه وتعالى: **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ**

---

[46]-سورة آل عمران، آية 107.

[47] -سورة طه، آية 40.

[48]-**معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها**، أحمد مطلوب، ص82.

أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [49]. وهنا يكون المستعار هو الاشتعال، والمستعار منه هو النار، والمستعار له هو الشيب، والجامع بين المستعار منه، والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب، ولا بدّ للاستعارة من قرينة تدل على أنها ليست تعبيرا حقيقيّاً، وهي القرينة المانعة من أداء المعنى الحقيقي، وهي هنا إسناد الاشتعال للشيب، وتكون العلاقة المشابهة دائماً.

وللإمام عبد القاهر الجرجاني جولة طويلة في شرح هذه الآية، وإبراز دلالاتها البلاغيّة، وأسرار الإعجاز فيها حيث يذهب إلى " أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)** لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك. ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأن يُسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة... وذلك أنّا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ ...وإن أسند إلى ما أسند إليه. يبين أن الشرف كان لأن سُلك فيه هذا المسلك، وتُوخِّي به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول: اشتعل شيب الرأس، والشيب في الرأس. ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن، وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي

[49]–مريم، آية 4.

هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه.. حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتدّ به، وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس. بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة. وَوِزان هذا أنك تقول: اشتعل البيت ناراً فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: اشتعلت النار في البيت فلا يفيد ذلك بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، واصابتها جانباً منه، فأما الشمول، وأن تكون قد استولت على البيت، وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتّة... واعلم أن في الآية الأولى شيئا آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل: واشتعل رأسي، فَصُرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فأعرفه "[50].

ويرى ابن سنان أن: " الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول، كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الموضع للبيان، ولابدّ من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أَولى؛ لأَنها الأصل، والاستعارة الفرع، وليس يخفى على المتأمل أن قوله عزّ وجلّ (اشتعل الرأس شيباً) أبلغ من كثر شيب الرأس، وهو حقيقة هذا المعنى"[51].

---

[50]–**دلائل الإعجاز في علم المعاني**، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححه محمد عبده، ومحمد محمود التركزي، وعلّق عليه محمد رشيد رضا، (بيروت: دار المعرفة، عام 1419هـ – 1998م.)، ص82-83.

[51]-**كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل**، عبد الرازق أبو زيد زايد،(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، عام 1976م.)، ص 101-102.

ولا تقف كلمة (اشتعل) عند معنى الانتشار فحسب، ولكنها تحمل دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه، وأتى عليه، وفي اسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس [52].

كما أن التشبيه لم يقصد إليه القرآن، وإنما هو طريقة من طرائق التصوير تحمل دلالات نفسية وفنية لإبراز فكرة معينة، أو رسم معنى معين، فكذلك الاستعارة، لم تذكر في القرآن، لأن العرب جربوها، واتخذوها منهجاً من مناهج البيان، وسبيلاً من سبل القول، ولكنها طريقة أخرى للتعبير والتصوير، والقرآن أسلوب مصور، يميل إلى الأفكار المجردة، فيمنحها التجسيم والتشخيص لتتحرك في نطاق الحياة، وتتميز في تعبير مألوف، يستخدمه أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، ليتضح مفهوم الإعجاز، ولذا انظر إلى قوله تعالى:

﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)**﴾ [53] . إنه تصوير فلسفي، فللذل جناح، وكلمة الذل توحي بالانكسار والضعف، وكلمة الجناح ترفع من الانكسار والضعف، وتغسله من ألوان الضعة، فهو إذن ذلّ جميل أصيل، لأنه في مقام الجميل، وهذه المناسبة الدقيقة في قوله تعالى: (واخفض) التي تشعر

[52]–من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص 218.

[53]–سورة الإسراء، آية 23–24.

الإنسان بأن ينزل إلى مستوى أبويه الضعيفين، مظللاً إياهما باللين والرحمة والحب والاشفاق، هذه اللفظة تشيع عمقاً فلسفياً في دلالة الآية تنبهر دونه الأنفاس [54] .

ويرى الزركشي أن "حكمة الاستعارة: في هذا جعل ما ليس بمرئي مرئياً، لأجل حسن البيان، ولما كان المراد خفض جانب الولد للوالدين، بحيث لا يبقى الولد من الذل لهما والاستكانة مركباً احتيج من الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى فاستعير الجناح، لما فيه من المعاني التي لا تحصل إلا من خفض الجناح، لأن من ميل جانبه إلى جهة السفل أدنى ميل، صدق عليه أنه خفض جانبه، والمراد خفض يلصق الجنب بالابط، ولا يحصل ذلك إلا بخفض الجناح كالطائر، وأما قول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنني صبّ قد استعذبت ماء بكائي

فيقال: إنه أرسل إليه قارورة، وقال: ابعث إلى فيها شيئاً من ماء الملام، فأرسل أبو تمام: أن ابعث لي ريشة من جناح الذل أبعث إليك من ماء الملام. وهذا لا يصح له تعلق به، والفرق بين التشبيهين ظاهر، لأنه ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام، فإن الجناح للذل مناسب، فإن الطائر إذا وهى وتعب بسط جناحه، وألقى نفسه إلى الأرض، وللإنسان أيضا جناح، فإن يديه جناحاه، وإذا اخضع واستكان يطأطئ من رأسه ويخفض من بين يديه، فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل، وصار شبهاً مناسباً، وأما ماء الملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه، فلذلك استهجن منه "[55] .

ومن هذه الإشارات البلاغية قوله تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [56]. ونلحظ هنا قد استعيرت الظلمات للضلال لتشابههما في عدم اهتداء صاحبهما، وكذلك استعير

---

[54]-**فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، فتحي أحمد عامر، ص250- 256.

[55]-**البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: الطبعة الأولى، د.ت.)، ج3، ص433-434.

[56]-سورة إبراهيم، آية 1.

لفظ النور للإيمان لتشابههما في الهداية، والمستعار له، وهما الضلال والإيمان كل منهما محقق عقلا، والقرينة حالية، أي تُفهم من سياق العبارة، والمقصود بالكتاب هو القرآن الكريم. وقُدّم الظلام على النور على سبيل تقديم الزمن، فالظلام سابق في الزمن على النور، وأول ما يرى الإنسان وهو في رحم إمه الظلام، أمّا من الجانب المعنوي، فالجهل يسبق العلم، فلا يُولد الإنسان عالماً، بل يتلقى العلم بعد مولده، وقوله تعالى: (وعلّم آدم الأسماء)، أي بعد مولده، وليس قبل مولده.

فالاستعارة لون من ألوان التصوير في القرآن الكريم، وهي من الأدوات المفصّلة لديه، ومن خلالها كان يعبّر عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس، فهو يعمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطيها ألوانها وظلالها ثم لا يلبث بعد ذلك أن يضيف إليها الحركة، فالحوار، فإذا هي شاخصة تسعى. إن إحصاء ما ورد في القرآن منها، وإجراءها لا يؤدي إلى بيان الجمال الفني في هذا اللون من التصوير، ومن الخير تبيان الأسرار التي دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية. فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصورة للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسّاً [57].

ونلمس من ذلك قوله سبحانه وتعالى:﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102)**﴾ [58].

---

[57]–**التعبير الفني في القرآن**، بكري شيخ أمين، (بيروت: دار الشروق، الطبعة الثالثة، عام 1399هـ – 1979م.)، ص197.

[58]–سورة الكهف، آية 98-102.

ترى الناس في هذه الدنيا منشغلين بأنفسهم، أو منشغلة أنفسهم بهم. فهم في هذه الدنيا " يتدافعون، ويتنافسون ويتزاحمون، فهم في بحر لجي، تضطرب أمواجه، لا يهدأ من الثورة، ولا يكفّ عن الصخب، كذلك الناس لا يكفون عن الصراع البشري، بعضهم يغالب نوازع نفسه، فيهلك، وتكتب له الحياة المطمئنة، وبعضهم لا لا يستطيع أن يغالب نوازع نفسه، فيهلك، وتكتب له الحياة القاسية المعذبة، وهذا الصراع البشري ترسمه كلمة (يموج) المستعارة من البحر لمعنى الاضطراب، كلمة تصور معالم حياة بما فيها من خير وشرّ، واستقامة، واعوجاج، ولن تستطيع كلمة من مجالها اللغوي أن تؤدي هذا المعنى المرسوم الموحي الذي تراه النفس، وتندمج معه أعماق التفكير، وهذا الصراع الدنيوي الذي كشفته للبصائر كلمة (يموج) له نهاية، ولا بدّ له أن ينتهي، لينتقل الصراع في الحياة الدنيا إلى صراع من نوع آخر (وعرضنا جهنم يؤمئذ للكافرين عرضا)، ألست ترى معي أن جهنم جسم محدود بالزمان والمكان ينتقل أو يعرض في موكب مهيب رهيب، فتخزى له عيون الكفّار، وتزلزل نفوسهم، قبل أن يصيبهم العذاب؟ وتصور أنت حال مشنوق تعرض عليه المشنقة قبل أن يشنق، وحال خائن حكم عليه بالاعدام رمياً بالرصاص، يرى جماعة من الجند بعينيه المفتوحتين يعبئون سلاحهم بقذائف الموت. وكل هذه الرهبة المزعجة تكمن في (عرضنا) المستعارة للكشف والابراز ثم تكمل الصورة بما بعدها، فالكافرون كانوا غافلين، كأن أعينهم مغطاة، فلم يبصروا طريقة النجاة، وكأن أسماعهم لا تطيق نغمة الحق، ولا تمتزج

معها، فلم يستمعوا إلى الخير، ثم يكون الاستفهام للاستنكار والتهديد في آخر الآية"[59] .

[59]-**فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، فتحي أحمد عامر، ص251- 252.

وهنا نجد كلمة (يموج)، تكشف عن دلالات بلاغيّة متعدّدة، فهي تتجاوز معنى الاضطراب إلى الحركة الدائبة، بحيث تجعلك تتخيّل ذلك المشهد المخيف المرعب، هذا الحشد الكبير، الذي لا بداية له، ولا نهاية، فهو ملئ السماء والأرض. لا تستطيع العين المجردة أن تدرك مداه، ترى العين منه ما تراه في ذلك البحر الزاخر التي تضطرب أمواجه في حركة سريعة وتتموج.

لقد كثر في القرآن الكريم أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة، يدل بها على معقول معنوي، يصير به كأنه ملموس مرئي، فضلاً عن إيحاءات الكلمة إلى النفس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ [60]. فكلمة (نسلخ) تصوّر للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء وحتى إذا تراجع الضوء وظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل[61]. ويرى ابن سنان أن انسلاخ الشيء عن الشيء هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالا، وكذلك انفصال النهار عن الليل، والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان[62] . كما أن سلخ جلد الحيوان يحتاج إلى تأني، ومهارة فائقة، وهي عمليّة لا يقوم بها إلا المهرة من الناس، فلعلك تتخيّل هذا المنظر كيف تكتمل فيه الصورة في غاية من الدّقة والمهارة.

ومن الاستعارات الرائعة التي وردت في كتاب الله، سبحانه وتعالى قوله: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾[63]. ذكر ابن قتيبة: " أي عن شدّة في الأمر، وكذلك قال قتادة، وقال إبراهيم: عن أمر عظيم، وأصل هذا

---

[60]-سورة يس، آية 37.

[61]-**التعبير الفني في القرآن**، بكري شيخ أمين، ص198.

[62]-**كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل**، عبد الرازق أبو زيد زايد، ص99.

[63]-سورة القلم، آية 42.

أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه، شمّر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدّة"[64].

نجد هناك إشارات خفيّة تتمثّل في هذه الاستعارة، فهناك الذهول الجاثم على الناس في موقف الجزاء، حيث الشدّة العارمة التي لا مخلص منها بالنجاة، فإذا شمّر الإنسان عن ساقه أو عن ساعده، ليهرب، فإنه لا يجد سبيلا إلى الهرب، لأنه بالرغم من ذهوله جامد في مكانه، حتى السجود لا سبيل إليه في تلك اللحظات. وكشف الساق في كلام العرب يراد به اشتداد الهول، وعظم الأمر، والأصل في ذلك أن المرء إذا نزلت به نازلة، أو اهتم لمباشرة أمر من الأمور، والمضي فيه؛ شمّر عن ساعديه، أو أدار إزاره، والأصل في هذا التعبير مرادا به الشدّة، والهول. أن يكشف عن الساق بالفعل عند الخطب واشتداد النازلة، ثم كثر واستفاض حتى صار يفهم منه اشتداد الأمر، واستفحال الخطب، ولو لم يكن ثمّة ساعد، ولا ساق، ولا كشف، ولا تشمير. وهكذا كلمة(كشف الساق) في هول يوم القيامة، يراد بها الهول، وفظاعة الأمر، وإن لم يكشف عن السوق بالفعل، وبناء الفعل للمجهول قبلها(يكشف)، أشاع الإبهام في الموقف مما يزيد الهول، ويضاعف الكرب، والإبهام هنا حيرة وقلق، أو غرق في حيرة، وقلق، لأن الشّدة خلصت الذهن إلى النظر إليها، والتفكير فيها [65] .

وهناك أيضا إشارات رائعة وطريفة للاستعارة في القرآن الكريم، جاءت لتشخيص الحدث، والموقف الذي قد يمرّ به البشر في ساعات الضيق والحرج، والغضب، ولكنها عكست صورة رائعة حقاً في تصوير وتشخيص هذه الأشياء. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [66]. حيث شبّه انتهاء الغضب عن موسى بالسكوت،

---

[64]-**تأويل مشكل القرآن**، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، (القاهرة: الطبعة الأولى، عام 1373هـ – 1954م.)،ص 103-105.

[65]-**بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، فتحي أحمد عامر، ص64-65.

[66]-سورة الأعراف، آية 154.

وذلك بجامع الهدوء في كلٍّ، ثم استُعير اللفظ الدال على المشبّه به، وهو السكوت، للمشبه، وهو انتهاء الغضب، ثم اشتُقّ من السكوت بمعنى انتهاء الغضب (سكت) الفعل، بمعنى انتهى. ولكن هذه الاستعارة التصريحيّة التبعيّة، يمكنها أن تتحول بمفهوم آخر إلى استعارة مكنيّة؛ حيث شبّه الغضب بإنسان، بجامع ظهور الانفعال في كلٍّ للمشبّه ، وحُذف المشبه به وهو الإنسان، واستعير اللفظ الدال عليه على سبيل الاستعارة المكنيّة. ولكن النكتة البلاغية في تلك التأملات الذهنيّة والنفسيّة التي تكشف عن الحالة العصيبة التي كان عليها سيدنا موسى ذلك الغضب الذي لا حدود له والذي تجسّد في شكل إنسان بلغ به الغضب ما بلغ، ثم رويداً رويداً استطاع أن يسيطر على نفسه منه. ومن هذا المنطلق نرى "أن النظم القرآني عمل هندسي يقوم على أسس فنيّة تخرج عن طوق البشر في مجال القول، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، فإذا انفصلت عنها كان بها مقام آخر مع كلمة أخرى، والجملة وراءها دلالات وأفكار في الفقرة، والفقرة ككل لها دلالات من نوع آخر تتقارب أو تتباعد حسب الموقف والمقام، فلا محل إذاً للضرورة فيه ومراعاة الفاصلة أو رأس الآية"[67] .

رابعاً:الكنايات.

الكناية: أن تتكلّم بشيء وتريد غيره، وكنّي عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنّى :تستر من كنّى عنه إذا ورّى، أو من الكنيّة[68] . وهي لون من ألوان التعبير المعجز، التي ألفه العرب في أساليبهم ومنطقهم، ولكن القرآن حين يستخدم الكناية فإنه يرسم بها موقفاً، أو يجسم معنى على عادته في التصوير، وهو بهذه الطريقة يسمو في القول سموا لا سبيل لأن يدركه البشر، لأنه قبل أن يصور معنى أو فكرة،

---

[67]-**بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، فتحي أحمد عامر، ص70.

[68]-**لسان العرب**، ابن منظور، مادة (كني).

فإنه يصور نفساً إنسانية انكشفت حالها له، واطلع على ما تخبئه من أسرار[69]. وقد جاءت في القرآن الكريم صور رائعة تحكي عن حال البشر، وما يكمن في خلجات أنفسهم، وجاءت هذه الصور في استخدام أسلوبيّ رفيع، يهذّب النفوس، ويعلمها فن الخطاب، وتهذيب السلوك، وإليك بعض الأمثلة القرآنيّة التي تستخرج ما في القلوب من خفايا، وأسرار، وذلك لقوله تعالى: ﴿**أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ [70].

ذكر الزمخشري: مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ، أي يتربى في الزينة والنعمة[71]. كما نلاحظ أن "في هذه الآية جاءت الكناية عن البنات في سياق الحديث عن المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، فمن المعروف في عادات الناس أنهم يُنشئون بناتهم بما يلائم طبيعتهنّ، وذلك بإعدادهنّ حتى يكنّ زوجات مالكات قلوب أزواجهنّ، وهذا الإعداد يتطلب تدريبهنّ على إتقان زيناتهنّ وحلياتهنّ، والتخضّع في القول، ومُجافاة الجدال، وعدم تعلّم الكلام الذي يُقال في المخاصمات، لئلا يُفسد عليها لسانُها حياتَها مع زوجها، أو مع أحد أولياء أمرها، فجمال المرأة بحشمتها وإتقان زينتها وضبط لسانها عن الخصومات. هذه الكناية جاء فيها ذكر الصفات كناية عمّن يتصف بها عادة، وهُنَّ البنات في قصور الملوك، وكبراء القوم، في مقابل جعل المشركين الملائكة بنات الله، وهو ملك الملوك، ونلاحظ في هذه الكناية ‘بداعاً تعبيريّاً، وتوجيهاً ضمنيّاً لما يحسن أن تُنشأ عليه البنات حتى يكُنّ زوجات صالحات مُهذبات"[72] . وذكر فتحي أحمد عامر أنها " كناية عن النساء، لأنهن ينشأن في

---

[69]-**فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، فتحي أحمد عامر، ص 258.

[70]-سورة الزخرف، آية 18.

[71]-**الكشّاف**، الزمخشري، ج4، ص 247.

[72]-**البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها**، عبد الرحمن حسن حبنك الميداني، (بيروت: الدار الشاميّة ودار القلم، الطبعة الأولى، عام 1416هـ – 1996م.)، ج2،ص149.

الترفه والتزين والتشاغل عن النظر في الأمور، ودقيق المعاني، وطبيعتهن تجافي عنيف المسئوليات، والقيام بجسام التبعات، لأنهن من قوارير.

وإليك بمثال أخر تتجلّى فيه بلاغة القرآن الكريم، وإشاراته البلاغيّة، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾ [73]. ويقلّب كفيّه كناية عن الندم، إذا ندم الإنسان قلّب كفيه، بحركة غير إرادية كناية عمّا ينتابه من قلق وضجر، وحالة نفسيّة مضطربة، اشتعلت في نفسه اشتعال النار في الوقود. فالرجل نادم على ما مضى، تأتت له فرصة نادرة، فرصة الإيمان بالله، ولكنّه أضاعها، وأشرك بربّه، الذي أعطى، ومنح، وأكرم ورزق. ولكن قليل من عبادي الشكور، فضاعت آماله وطموحاته أدراج الرياح، وصارت جنته رماداً، كأن لم تكن من قبل، وأصبح خسران نادم على ما أنفق فيها، فأخذ يقلب كفيّه ندماً وحسرة على ما حدث له.

وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كني عن ذلك بعضّ الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم[74].

وهنا مثال آخر يؤكد أن القرآن لا يقف عند طرق القول البياني مفضلاً طريقة على أخرى، أو قاصداً إلى طريقة دون غيرها، وإنما هو يترك ذلك للمقام والمناسبة، فإذا استدعت المناسبة الكناية لما لها من دقة فنيّة برز لها المعنى، وتجسّم الموقف، وذلك لقوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ [75]. فالموقف عصيب جدا، والمؤمنون في موقف لا يحسد عليه، فالعدو محيط بهم من كل الجوانب والاتجاهات، ولا مجال للفرار، وهنا جاءت الآيات القرآنية لترسم ذلك الموقف العصيب. ولعل من

---

[73]–سورة الكهف، آية 42.

[74]–**الكشّاف**، الزمخشري، ج2، ص676.

[75]–سورة الأحزاب، آية 10.

أجمل الأساليب البلاغيّة التي ناسبت الموقف، وعبّرت عن مقتضى الحال الذي كان المؤمنون فيه، هو أسلوب الكناية: (وإذ زاغت الأبصار)، كناية تبرز الخوف الذي سيطر عليهم، وأفقدهم الإحساس بأنفسهم، فاضطربت أحداقهم في محاجرها، وأصابهم الهلع والذعر، والخوف والاضطراب، وكادت أن تتقلب عليهم نزعات الشيطان، ووسوسته. وتأتي كناية أخرى لتكشف لحظات اليأس، وفقدان الأمل، والاستسلام لصروف الدهر ونوازله، والخوف الذي أصبح مسيطراً على الموقف: (وبلغت القلوب الحناجر)، انخلعت القلوب من مكانها، وكادت أن تفارق الأجساد والأبدان ممّا أصابها من شديد الحوادث، وفادح النكبات. فقد نُسجت هذه الصورة الكنائيّة لتجسّد وتجسّم الموقف الذي مرّ به المؤمنون، ولكن نصر الله قريب.

وهناك أيضاً صور أخرى من القرآن الكريم، وهي توضّح ما تميّز به أسلوب القرآن الكريم في مخاطبة البشر، فهناك مواضع لا يمكن أن تطلق فيها العبارات على عواهلها، لا بدّ من دقّة التعبير، لحساسية الموقف، ولكل مقام مقال، وبراعة القرآن الكريم في اختيار اللفظة المناسبة، والعبارة المعبّرة عن الموقف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾ [76].

والغائط هو المكان المنخفض، وهو يستعمل للدلالة على قضاء حاجة الإنسان الطبيعية، ونجد استخدام هذه الكلمة في هذا المكان، أدّت إلى إزالة الحرج من استخدام كلمة مكشوفة يستحي الإنسان بما رُكبّ فيه من طبع حساس، وروح شفّافة أن يطلقها هكذا دون تحسس أو حرج، أو حياء. وملامسة النساء هي تعني

[76]–سورة النساء، آية 43.

الغشيان أو كناية عن الجماع الذي لا يستغنى عن الملامسة. ولكن القرآن الكريم، وهو وحي السماء على الأرض، جاء ليعلّم البشر السلوك المستقيم الرشيد القويم، كيف تعبّر بطريقة يتقبّلها الجميع، أي كيف تحسن فن العبارة بحيث لا تجرح إحساس الآخر، أو تسبب له الحرج. وهو لون من ألوان التربية النفسية التي انفرد بها القرآن، مرتفعاً بنفوس المسلمين عن المعايب وصاقلاً لأذواقهم، فلا تتدحرج في حضيض السفاهة، ولذا كان من عاداته أن يكني عن الجماع بالملامسة، والمباشرة، واللمس وغير ذلك.

ونجد أيضاً مواقف أخرى يتحدث فيها القرآن الكريم عن كناية المرأة حيث جاء في قوله تعالى:

﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾ [77]. وهي كناية عن موصوف، وهنّ النساء العفيفات، "وقصور الطرف في الأصل موضوعه للعفاف على جهة التوابع والإرداف، وذلك أنّ المرأة إذا عفّت قصرت طرفها على زوجها فكان، قصور الطرف رِدفٌ، وتابع لقصور الطرف"[78].

فالمؤمنون الآن في دار الجزاء، تتحقق لهم أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب، بلا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع. وتكمل صورة الجزاء بالحور الحييات العفيفات، لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفّة، وهو المعنى الكنائي الذي وضح من الآية. وللكناية هنا غرض لفظي، وغرض نفسي، فالغرض اللفظي هو تحسين اللفظ وتزيينه بما يعده العرب جميلاً حسناً، والغرض النفسي تهدئة نفوس المؤمنين بالجزاء العادل، بحصولهم على ما كانوا يمنون به في الحياة الدنيا، فها هم أولاء يكرمون في الموقف العصيب بوقايتهم من هجير الشمس

---

[77]–سورة الرحمن، آية 56.

[78]–**الصناعتين**، ابن رشيق القيرواني، ص350.

وقسوتها العنيفة، ويكرمون بدخول الجنة حيث يجدون استقرارهم الأبدي، ويبعدون عن النار إلا من النظر إلى من فيها كمالاً في الاستمتاع[79] .

وهنا أسلوب آخر من أنواع الكناية زان به القرآن الكريم لغة العرب، ومن ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾ [80]. يريد أن يتحدث عن البخيل الذي لا يستطيع أن يمدّ يده بعطاء، فيكنى بعبارة (مغلول اليد إلى العنق)، لأنّ من كانت يده مغلولة إلى عنقه كان غير قادر على أن يبسطها لو أراد بسطها، ويعطي بها أو يأخذ، وكذلك الشحيح الذي يكون بخله شديدا، تكون حالة يده التي يعطي بها عادة مع شُح نفسه، كحالة من غُلّت يده إلى عنقه.

واليد المغلولة كناية عن البخل، واليد المبسوطة كل البسط كناية عن الاسراف الذي يجلب اللوم والحسرة، وكلاهما ايذاء لنفس صاحبه، واليد إذا بسطت كل البسط، واستوت كل الاستواء لا تحوز شيئاً، ولا تبقى على شيء، بل تظل مجردة إلا من الحرمان[81].

ونلحظ هنا ضرباً من البلاغة والبيان عبّر عنه القرآن الكريم تعبيراً يتناسب مع الغرض والموقف، فهي تشخيص لبعض البشر الذين ظلموا أنفسهم، وأضاع الفرصة التي سنحت لهم، فضاع معها الأمل والرجاء. ولم يكن ينتظرهم سوى الندم والحسرات، فكل شيء ذهب أدراج الرياح. قال سبحانه وتعالى:﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا**﴾ [82].

وذكر الزمخشري أن "عض اليدين والأنامل، والسقوط في اليد، وأكل البنان، وحرق الأسنان وقرعها: كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة

---

[79]- **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، فتحي أحمد عامر، ص 260.

[80]–سورة الإسراء،آية 29.

[81] –المرجع السابق، ص 262.

[82]–سورة الفرقان، آية 27.

ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان، ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه"[83] . ونلحظ أن المسألة ليست في الفعل ذاته، ولكن في الحركات المنبثقة منه، والرمزية المرتبطة به. فعض اليد شيء يرمز للندم والحسرة على ضياع فرصة ثمينة نادرة أكرم الله – سبحانه وتعالى – بها الإنسان فأضاعها، وجاء بعد ذلك يتحسّر عمّا أضاع. والصورة هنا تكمن في تشخيص المشهد، وتجسيمه، حتى صار شكلاً متحرّكاً ينبض بالحياة، ويحرّك الوجدان، ويدفع فيك روح الأمل، والعمل قبل فوات الآوان، وضياع الفرصة، وخسران الدنيا والآخرة.

وهكذا نرى كيف أثّر القرآن الكريم في نفوس البشر، وكيف أن الإشارات البلاغية تلك لعبت دوراً كبيراً في الوصول إلى المعاني الكامنة وراء النص القرآني، وكشفت عنها في يسرٍ وسهولة، وساعدت في تفسير آيات الله سبحانه وتعالى، ومنحتها نوعاً من التشخيص والتجسيم الذي يحرك العقل والوجدان، ويعبر بالإنسان إلى دنيا النور والفلاح: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

المصادر والمراجع:

1-الأمثال في القرآن الكريم، الدكتور محمد جابر الفياض، (الرياض: الطبعة الثانية،عام 1415هـ - 1995م،نشر وتوزيع الدار العالميّة للكتاب الإسلامي).

2-البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: الطبعة الأولى، د.ت.)

3-البلاغة العربية؛أسسها، وعلومها، وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنّك الميداني، (بيروت: دار القلم والدار الشاميّة، الطبعة الأولى، عام 1416هـ - 1996م.).

[83]-**الكشّاف**، الزمخشري، ج3، ص280.

4-البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، الجزء الثاني، علم البيان، بكري شيخ أمين، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، عام 2003م.)
5-بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، فتحي أحمد عامر،(مصر: دار النهضة العربيّة، عام 1974-1975م،دار الإتحاد العربي للطباعة).
6-تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، (القاهرة: الطبعة الأولى، عام 1373هـ - 1954م.)
7-التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، (بيروت: دار الشروق، الطبعة الثالثة، عام 1399هـ - 1979م).
8-الحيوان، للجاحظ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، (بيروت: الناشر دار الكتاب العربي،بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، عام 1969م.)
9-دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححه محمد عبده، ومحمد محمود التركزي، وعلّق عليه محمد رشيد رضا، (بيروت: دار المعرفة، عام 1419هـ - 1998م.).
10-دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر، (القاهرة: الطبعة الأولى، د. ت.).
11-سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل، عبد الرازق أبو زيد زايد،(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، عام 1976م.).
12-الصناعتين، أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: 1371هـ - 1952م.)
13-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: الطبعة الثانية، عام 1374هـ - 1955م.)
14-فن التشبيه، الأستاذ علي الجندي،(القاهرة، الطبعة الأولى،د.ت.).
15-فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فتحي أحمد عامر، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة، عام 1395هـ - 1975م.)
16-الكامل، ابو العباس المبرد، تحقيق زكي مبارك، (القاهرة: عام 1355هـ

– 1936م.)
الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، عام1997م).
17–لسان العرب، ابن منظور، قدّم له العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ونديم مرعشلى مادة (كني)، (بيروت: دار لسان العرب، مطبعة أوفست تكنويرس الحديثة، د.ت.)
18–المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، (القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1358هـ – 1939م.).
19–مجاز القرآن،أبو عبيد معمر بن المثنى،تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين،(القاهرة: الطبعة الأولى، مطبعة السعادة).
20–مختار الصحاح،الرازي،مادة (قوع)،(القاهرة: الطبعة الثالثة ، المطبعة الأميرية).
21–مختصر من تفسير الإمام الطبري، أبو يحي محمد بن صمادح التُّجيبي، تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيتي، وراجعه، الدكتور جوده عبدالرحمن هلال، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام 1390هـ – 1970م.)
22–المصباح المنير،الفيومي،مادة(قوع)،(القاهرة:الطبعة الخامسة، المطبعة الأميرية).
23–معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، عام 1402هـ – 1982م.)
24–معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها،أحمد مطلوب، (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، عام 2000م.)
25–مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، (القاهرة: عام 1356هـ – 1937م.)
26–من بلاغة القرآن،الدكتور أحمد بدوي، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر،

الفجالة، عام 1950م.).
27-نزهة الألباء، ابن الأنباري، (القاهرة: طبعة المدني، د.ت.).
28-نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، (القاهرة: الطبعة الأولى، عام 1963م .)
29-النكت في إعجاز القرآن (ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن)، ابو الحسن علي بن عيسى الرُّماني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، (مصر: الطبعة الخامسة، دار المعارف، عام 2008م.)